# الفصل الثاني
# هوية الذبيح بين العهد القديم والروايات الإسلامية

## ١ ــ مقدمة البحث:

ذكرت في المدخل الذي خصصته للبحث في (حد) و(مناهج) و (أهداف) الدراسة الدينية المقارنة في العالم الإسلامي أنها تعاني من الكثير من عناصر الضعف، وأرجعت ذلك في جزء كبير منه إلى عدم قدرة المفكر المسلم الحديث على تجاوز الحاجز النفسي المتمثل في رفضه (التعرف) على (الآخر) في مصادره، إضافة إلى عدم تجديد الفكر الإسلامي الحديث (لمناهجه) ووسائل تحقيق (أهدافه). وهما الأمران اللذان ما يزال هذا الفكر خاضعاً فيهما لما (أبدعه) الفكر الإسلامي القديم رغم ورود متغيرات كثيرة على العالم الإسلامي لم يكن للمسلمين القدامى عهد بها.

وتدخل دراسة «قصة الذبيح في العهد القديم والقرآن الكريم» ضمن المنظور الذي رسمت بعض ملامحه في (المدخل) المذكور آنفاً، حيث سعيت فيها إلى إبراز حد ومنهج

وأهداف مثل هذه الدراسة الدينية ميدانياً.

ولتحقيق بعض أغراض هذا البحث فقد قسمته إلى مباحث عديدة، بعضها كان وليد تخطيط مقصود، وبعضها الآخر كان نتيجة لازمة لهذه المباحث التي سبق التخطيط لها. وقد استبان لي، وقد وجدت نفسي أبحث في بعض الموضوعات التي لم تكن في الحسبان أول الأمر، أن من سمات الدراسة المقارنة للأديان هو الإحاطة بالموضوع المبحوث في ذاته وفي متعلقات أخرى يبدو أن لا علاقة لها بالمبحث الأساسي لأول وهلة، ولكن الدفع الذاتي لنواة البحث لإنجاز ما يحيط بها يشكل دليلاً كافياً على عدم إمكان الاستغناء عنها. ومن أمثلة ذلك أن البحث في نسب النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم... عليه الصلاة والسلام لم يكن من حيث التخطيط عنصراً من عناصر قصة الذبيح، ولكن تبين بعد البدء في معالجتها أنه متعلق من متعلقاتها، بل: إن كون محمد ﷺ متصلاً من حيث النسب والنبوة بإسماعيل عليه السلام نتيجة من نتائج كون إسماعيل ذبيحاً كما سنرى.

ومن البديهي أن أنبه إلى أن حادث الذبح هو من الأمور التي اشتركت في ذكره الكتب المقدسة للديانات التوحيدية وإلا لما كان لهذا البحث مبرر للوجود، فقد ورد في سورة الصافات، ووردت متعلقاته في سور أخرى سنذكرها في حينها،

كما عرض له العهد القديم في سفر التكوين.

ويجب أن أقرر منذ الآن، أن اتفاق القرآن الكريم و(التوراة)[1] على إيراد قصة الذبح والاشتراك في بعض ملابساته لا يعني التطابق بين طرحيهما، بل إن النظر في ذلك يبدي فروقاً شاسعة بينهما حول (هوية الذبيح) وما يحيط بها من (عقائد) و (توجيهات) لها من الأهمية في مجال العقيدة الشيء الكثير. هذا إضافة إلى الاختلاف البين في شكل إيرادها.

ومن المقدمات التي اتفق الكتابان المقدسان عليها أن قصة الذبيح فيهما ليست مستقلة بذاتها، بل إن ورودها فيهما جاء في سياق عام، عند ذكر نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام. والأهمية العقيدية ــ التي أشرت إليها قبل قليل ــ تتأتى في جانب كبير منها من الانتساب إلى هذا النبي الذي يعتبر (أبا التوحيد) في شكله المعروف للبشر منذ أكثر من أربعة آلاف سنة. فقد اكتسبت هذه الشخصية الدينية في تاريخ جميع الأديان التوحيدية قدراً عظيماً من الاحترام والتبجيل، فهو عليه

---

(١) التوراة هي الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، وتطلق مجازاً على العهد القديم كله، وهي: سفر التكوين، والخروج، والعدد، والتثنية، واللاويين.

الصلاة والسلام يعتبر عند اليهود (أباً) من آباء بني إسرائيل، بل جدهم الأعلى. وهم يحاولون في كل كتبهم الدينية والفكرية أن يربطوا دينهم، وقبل ذلك وجودهم بوجوده. ويتضح هذا ـ كما سنوضح في حينه ـ من مدهم خطاً نسبياً مباشراً بينه وبين جميع أنبيائهم، وبينه وبين جميع الشعب اليهودي. والملاحظ أن النسب المباشر بين أنبياء إسرائيل وإبراهيم ـ على عكس الزعم بانتساب الشعب اليهودي إلى اليوم إليه[1] ـ حقيقة يعترف لهم بها المسلمون على الرغم من تطرف اليهود الذي يتمثل في حصرهم (النبوة) برمتها في عرق واحد هو عرق إسحاق. وهو الأمر الذي دفعهم إليه تصورهم العرقي الضيق لحقيقة (الألوهية) و(النبوة) كما سيبدو جلياً في حينه.

ومن المؤكد أن شرف وأهمية الانتساب إلى هذا (النبي الأمة) هو ما دفع كتاب الأناجيل إلى إلحاق نسب عيسى عليه السلام به عبر سلسلة طويلة من النسب، تبدأ منه، وتنتهي إلى يوسف زوج مريم العذراء. وإن نص (متى) يوحي ـ في شكله اللغوي ـ بأن يوسف هو والد عيسى، يقول متى: «ويعقوب

---

(١) فكرة انتساب اليهود إلى إبراهيم عليه السلام بقدر ما فيها من الخطورة فإن ذلك لا يقل أبداً عما فيها من الزعم الباطل. انظر: يهود اليوم ليسوا يهوداً، بنيامين فريدمان، ت: زهدي الفاتح.

أنجب يوسف رجل مريم، والتي منها ولد يسوع الذي يدعى المسيح»[1]. والملاحظ هنا هو محاولة الالتصاق النسبي الحميم رغم علم المسيحيين اليقيني أن خلق عيسى كان خلقاً غير طبيعي، أي أنه كآدم عليه السلام مولود من غير أب.

وما قلناه بالنسبة لأهل الكتاب هو ما يؤكده المسلمون بنصوص متعددة من القرآن الكريم تبين بوضوح خروج جميع أنبياء التوحيد الحديث من نسل إبراهيم عليه السلام، يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]. وهذا النص القرآني المجمل تأكيد للحقيقة التي سبق ذكرها، والتي لا يكتفي فيها القرآن الكريم بالإجمال، بل يفصلها في مواضع متعددة من سوره، مثل قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ

---

(١) متى ١ ــ ١٦.

(٢) الحديد: ٢٦

ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾[1]. ومع هذا فيجدر التنبيه إلى أن القرآن الكريم ــ على عكس العهد القديم ــ يفتح الباب واسعاً بهذه الآيات وغيرها أمام جميع الديانات التوحيدية المعلومة لدينا والمجهولة لكي تكون فرعاً عن الأصل الإبراهيمي.

وتأسيساً على ما تقدم تتبين أهمية بيان انتساب أي نبي لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، إضافة إلى أهمية معرفة هوية الذبيح ومهجره ونسله... لأنها أمور تؤكد عنصر (الاختيار الإلهي) في إجراء تلك الحوادث والرسم لمستقبل العقيدة ذاتها، وارتباط كل ذلك بالنبي الخاتم الذي تعين تاريخياً في محمد ﷺ. وهو الأمر الذي ينكره أهل الكتاب: اليهود بدعوى حصر النبوة في إسحاق ونسله. والنصارى بحجة اكتمال التاريخ الديني للإنسانية بتجسد المسيح عليه السلام. هذا إضافة إلى أن البحث في هذه القضايا الخلافية يشكل أساساً لمعرفة الأسباب الدينية والتاريخية التي دفعت إلى التحريف ــ الثابت علمياً ــ في الكتاب المقدس. ولا بأس الآن أن نبدأ بالدراسة التي سنتبع فيها، بإذن الله، المنهج الذي رسمنا ملامحه في المدخل

---

(١) الأنعام: ٨٣ ــ ٨٧.

الذي بينا فيه طريق البحث الديني المقارن وأهدافه الدينية والعلمية.

## ٢ ــ هوية الذبيح في العهد القديم:

إن الذبيح عند اليهود ــ والنصارى تبعاً لهم ــ هو جدهم إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام. وأول النصوص التي تنص على هذا الاعتقاد وتؤكده هي ما ورد في سفر التكوين من قول الله تبارك وتعالى لإبراهيم: «خذ ابنك، وحيدك، الذي تحبه، إسحاق، واذهب إلى أرض المريا واصعده هناك (محرقة)[١] على أحد الجبال الذي أقول لك»[٢].

ويبدو من النص السابق قطع العهد القديم، إذ يحدد اسم الذبيح (نصاً). وهو يحاول بذلك أن يقضي على كل شك أو غموض قد يتطرق إلى هذا (المسلمة). وهذا عنصر أصيل وأسلوب طرح معتاد في التوراة، يبين بوضوح أنها كتاب تاريخ أكثر من كونها كتاب عقيدة. ويتأكد ذلك من (كثرة) التفاصيل التي توردها في كل قصة من قصصها رغم انتفاء علاقتها

---

(١) القربان اليهودي في عهد موسى عليه السلام ــ وفي الأزمنة التالية له ــ كان يحرق، ويبدو أن الأمر كان كذلك في زمن إبراهيم عليه السلام.

(٢) التكوين: ٢٢/٢.

بالمعتقدات، وإن كان الأمر يختلف هنا بعض الاختلاف إذ سيتبين من التأكيد على هوية الذبيح ــ إضافة إلى ما ذكرنا ــ أن كتّاب هذا النص أرادوا غرس اعتقاد في النفوس لا مجرد التفصيل القصصي.

ولنا أن نتساءل الآن عن هذه الشخصية التي حددها العهد القديم، واعتبر حادث الذبح متعلقاً بها؟ إن إسحاق عليه السلام هو الثاني من أبناء إبراهيم عليه السلام، وقد أنجبه لما كان له من العمر مائة سنة. وتبدأ قصته في التوراة ببشارة الله لإبراهيم بميلاده، فقد ورد في سفر التكوين «وأباركها ــ يقصد سارة ــ وأعطيك أيضاً منها ابناً»[1]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ميلاده كان شيئاً خارقاً، حتى أن والده تعجب من هذه البشارة وقال في قلبه: «هل يولد لابن مائة سنة؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة»[2]. وفي النص تنبيه إلى العجز الذي يصيب كبار السن عن إتيان أسباب الولد لقلة الرغبة والعجز البدني عنه بالنسبة للذكور من البشر والإناث على السواء. كما أنه يشير إلى الطريقة الخارقة التي وهب الله تبارك وتعالى بواسطتها لعبده إبراهيم ابنه الثاني إسحاق.

---

(١) التكوين: ١٧ ــ ١٦.

(٢) التكوين: ١٧ ــ ١٧

وتستمر التوراة بعد هذا في رواية قصته: نشأته وزواجه وتغربه... وهي تقدم بذلك لحصرها للنبوة في خلفه بعد إقصائها لإسماعيل من هذا العهد. يقول سفر التكوين مؤكداً ذلك: «ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق»[1].

وقبل دراسة النصوص السابقة نحتاج إلى الرجوع قليلاً إلى الوراء لنبحث عنصراً مهماً في حياة إبراهيم عليه السلام الحافلة بالأحداث، وهو عنصر الولد، وذلك لأهمية الإحاطة بهذه المسألة فيما نحن بصدده. فقد خرج إبراهيم عليه السلام من (أرام النهرين) العراقية متغرباً في أرض الكنعانيين، وقد كان هؤلاء يقيمون في ذلك الزمان إلى الغرب من البحر الميت، ويجاورهم في باقي فلسطين الحالية الفلسطينيون والآراميون، وغيرهم. وسكن إبراهيم تلك الأرض بأمر الله الذي وعده بأنه سيهبها لنسله إلى الأبد»[2]. وقد حدث أن اشتكى إبراهيم عليه السلام لله عز وجل، بعد مدة من البشارة، من عدم إنجابه الذي يعتبر شرطاً لتحققها. كما أبدى خوفه من أن يرثه الغرباء للسبب نفسه فوعده الله بالنسل. يقول سفر التكوين: «وقال أبرام: أيضاً إنك لم تعطني نسلاً.. فإذا كلام

---

(١) التكوين: ١٧ ــ ٢١.

(٢) التكوين: ١٣ ــ ١٥ ــ ١٦.

الرب قائلاً: بل الذي يخرج من أحشائك، هو يرثك»[1]. فمن هو هذا الوارث يا ترى؟

إنه في الأصل إسماعيل الابن البكر لإبراهيم، وهو شخصية محورية من شخصيات العهد القديم، روى قصتها بتوسع، ولم يضرب عنها إلا بعد ميلاد إسحاق بمدة. وقد ولد إسماعيل عليه السلام لأبيه بعد الوعد بوراثة الأرض المقدسة وشكواه من عدم تحقق الوعد، من جارية مصرية اسمها (هاجر)، أهدتها له زوجته (سارة) لتنجب له الولد الذي كانت هي عاجزة عن إهدائه إياه. وكان سن إبراهيم عليه السلام حينها ستاً وثمانين سنة[2].

والحقيقة أن تناقضات العهد القديم فيما يخص شخصية إسماعيل تبدأ في الظهور بدءاً من تسميته ذاتها. ومعلوم أن معنى (إسماعيل) في العبرية هو: قد سمع الله، وهذا ما تؤكده التوراة بالنص، ولكن التناقض يبدو في تحديد الشخص الذي أطلق عليه هذا الاسم، وهو ملمح يدل على مقدار الحيرة التي

---

(١) ١٥/ ٣/ ٤. وتجدر الإشارة إلى عدم دقة المصطلح التوراتي والذي يتمثل في تقريرها أن الولد يخرج من (أحشاء) الرجل إذ هذا الوصف لا يصح إلا بالنسبة للمرأة.

(٢) انظر: التكوين: ١٥/ ٢٤ ــ ٢٥.

وقع فيها كتاب التوراة، والتي نشأت عن سعيهم الحثيث للتوفيق بين ضرورة العمل على التأسيس لنبوة إسحاق وإبعاد إسماعيل عنها، وضرورة المحافظة مع هذا على نصوص الوحي ــ وهو الأمر الذي سنشرح دوافعه في حينه ــ وذلك على هذا التفصيل:

(أ) يجعل العهد القديم (هاجر) تسمي وليدها بهذا الاسم بوحي من الله عز وجل، وذلك حين تروي هروبها من وجه سيدتها سارة ــ وهي حامل ــ فيظهر ملاك الرب ليقول لها: «تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب: ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه (إسماعيل) لأن الرب (قد سمع) لمذلتك»[1].

(ب) تقترح التوراة في موضع آخر ما يخالف الكلام السابق، إذ تجعل إبراهيم عليه السلام يختار بنفسه اسم ولده «فولدت هاجر لإبرام ابناً، ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل»[2]. ويتأكد هذا بنص آخر حيث يقول الله لإبراهيم: «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه»[3]..

---

(١) التكوين: ١٦/ ١٠ ــ ١١.
(٢) التكوين: ١٦/ ١٥.
(٣) التكوين: ١٧/ ٢٠.

ولنا الآن أن نتساءل: من سمى إسماعيل؟ ولماذا هذا التناقض؟

أما بالنسبة للسؤال الأول فمن المؤكد أن إبراهيم عليه السلام هو من سمى ابنه بدلالة النصوص السابقة. ويتأكد ذلك باستنتاج نراه في غاية المناسبة لحكاية إبراهيم مع الإنجاب، وهو: أننا نستدل من رجاء إبراهيم وتضرعه لربه من أجل أن يهبه الولد الذي يرثه أن يكون اسمه دالاً على نعمة الله وهو (إسماعيل)، وهو علم يدل بلفظه ذاته على أن الله قد سمع لتضرع عبده إبراهيم.

ودليل آخر وهو: أن الآباء، خصوصاً في الأزمنة القديمة ــ وإن كانت هذه العادة مستمرة إلى الآن في المجتمعات المحافظة ــ لا يتركون شرف وواجب تسمية أبنائهم ــ عموماً ــ لأي كان. فلماذا يترك إبراهيم عليه السلام هذا الشرف لغيره؟

أما محاولة التوراة نسبة هذا العمل لهاجر فيتضح منه سعيها إلى ربط إسماعيل عليه السلام بأمه، وبالتالي إبعاده عن أبي الأنبياء إبراهيم، وذلك توطئة لسحب شرف النبوة منه. ويبدو النجاح الذي لقيه كتاب العهد القديم واضحاً في تبني الكثير من الدارسين الغربيين لطرحهم. وهو تبن يدل على عدم قدرتهم على الخروج من (الموروث) إضافة إلى دلالته على

العجز عن تتبع النصوص بطريقة علمية.

ونحتاج الآن إلى البحث في العلاقة التي تربط إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل، وهو قضية مهمة نظراً لارتباطها بأمر (الذبح) نفسه، وبأمر آخر وهو (الإبعاد) الذي تعرض له إسماعيل بعد ذلك، والذي يشكل أصلاً يجب بحث أسبابه عند اليهود، وبيان علله الحقيقية لما لها من الخطورة العقيدية التي لا تقل أبداً عن خطورة بحث هوية الذبيح.

أما عن العلاقة التي كانت تربط هاتين الشخصيتين فهي من الشدة في الدرجة، ومن الوضوح في الأسباب بحيث لا تدع أي مجال للشك في الحب الشديد الذي كان يكنه ـ ويظهره ـ الأب لولده، والحب والاحترام الذي يكنه ـ ويظهره أيضاً ـ الابن لوالده كما سيتبين في حينه. ولمعرفة ذلك بطريقة علمية هناك طريقتان:

**١ ـ النص:**

عند تبشير الله عز وجل لإبراهيم بإسحاق ينقل العهد القديم رد فعله على ذلك، إذ فضلاً عن اندهاشه من هذه البشارة نظراً لكبر سنه وسن زوجته، فإنه يؤكد على (اكتفائه) بابنه (إسماعيل) حيث يرجو ربه عدم حرمانه منه، ويدعوه لكي يمد في عمره و (يرعاه) عوض إبداء الفرحة بالولد الجديد. وفي الأمرين: أمر الاندهاش من البشارة بالولد القادم، وأمر

الطلب الخاص (بالرعاية) للولد الموجود، دليل على الحب البالغ الذي يشعر به إبراهيم عليه السلام نحو ولده.

وهذا هو النص «وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك»[1].

## ٢[2] ــ الاستنتاج:

الذي يستند على (بدهية) أن يتعلق والد بلغ من العمر ست وثمانين سنة ــ وهي رواية العهد القديم ــ حين إنجابه لولده الوحيد، خصوصاً وأنه كان راغباً فيه، متضرعاً إلى الله عز وجل من أجل إعطائه إياه.

ونعود بعد رسمنا لهذه الصورة اعتماداً على نصوص العهد القديم إلى النص الذي يطرح اسم (إسحاق) باعتباره الذبيح وهو: «خذ ابنك، وحيدك، الذي تحبه، إسحاق، واذهب إلى أرض المريا، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك». وبتحليلنا هاته الجمل في ضوء الصورة التي تشكلت لدينا الآن نلاحظ ما يلي:

---

(١) التكوين ١٧ ــ ١٨. والعبارة كناية عن دعوة إبراهيم الله عز وجل رعاية إسماعيل. وهي تشبه قوله تعالى في القرآن الكريم ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾.

(٢) الخروج: ١٣/١ ــ ٢.

( أ ) أن كلمة (إسحاق) كلمة مدسوسة على النص، لأنها تبدو غريبة تماماً عن السياق العام، وذلك لأن (إسحاق) لم يكن أبداً وحيد والده إبراهيم عليه السلام، على العكس من (إسماعيل) فقد ظل وحيد أبيه لمدة أربع عشرة سنة من الزمان، حيث ولد وعمر إبراهيم ست وثمانون سنة، أما إسحاق فقد ولد وعمر والده مائة سنة كاملة. فمن المؤكد على هذا أن إسماعيل قد مكث مع أبيه كل هذه المدة بدون أي شريك، مما يجعل صفة (وحيدك) الواردة في النص تلتصق به التصاقاً شديداً، وتتجافى عن إسحاق كل المجافاة.

(ب) وردت صفة (الذي تحبه) في النص أيضاً، ونحن وإن كنا لا ننكر أن يحب إبراهيم عليه السلام ــ وأي أب سوي آخر ــ ولده الأصغر، وهو هنا إسحاق، إلا أننا بينا قبل قليل اعتماداً على نصوص التوراة ذاتها حب إبراهيم الشديد لإسماعيل وتعلقه به. وليس ذلك غريباً ــ كما قلنا حينذاك ــ على أب لم ينجب إلا في سن متأخرة. وهذه كلها أمور تدفعنا إلى القول بأن صفة (تحبه) نعت لإسماعيل لا إسحاق.

ونحن إذا حذفنا الكلمة التي حكمنا بناء على الصورة التي تشكلت لدينا من بحث النصوص السابقة، وما تشعه من ظلال نحصل على نص سليم تماماً من التناقض الداخلي الذي يلاحظه الدارس المنتبه فيه قبل تنحية هذه الكلمة الدخيلة، وهذا هو

النص بعد الحذف «خذ ابنك وحيدك، الذي تحبه... واذهب إلى أرض المريا». ويجب أن نلاحظ هنا أن من الدلالات القوية على ما قررناه، أن أي إنسان عاقل ــ عالم بأحداث حياة إبراهيم عليه السلام مجردة من تفسيرات كتبة اليهود ــ يقدم إليه هذا النص، ويطلب منه تحديد الذبيح من أبناء إبراهيم عليه السلام، فإنه لا يتوانى لحظة عن اختيار إسماعيل.

ولتوسع إطار البحث والتأكيد على ما توصلنا إليه نضيف دليلين آخرين لا يقلان أهمية عما ذكرناه عند دراسة النص السابق:

**الأول:**

يتمثل في عادة، بل واجب يدخل ضمن التكاليف الدينية المفروضة على اليهود، وهو نص مصادرهم على وجوب أن يوهب (البكر) من كل شيء ــ بشراً كان أو حيواناً ــ لله عز وجل، وأن ينذر له. ويوجد في سفر الخروج ما يبين ذلك، فقد ورد فيه قول الله تعالى لموسى: «خصص لي كل أول مولود يولد في إسرائيل لأن أول مولود للمرأة، وأول مولود للحيوانات هو ملكي»[1]. وهو واجب يتعدى في الحقيقة نذر

---

(١) اللاويين ٢٣/٩. ويوجد في سلوك العرب في الجاهلية ما يؤكد وجود أصل لما كان عليه اليهود، مع دلالته الواضحة على ارتباط =

البكر من الإنسان والحيوان إلى الغلال أيضاً، فأول حزمة تحصد كانت تقدم رسمياً للرب. هذا إضافة إلى تكليف آخر في الشريعة الموسوية وهو وجوب تقديم خبزتين للرب من أول حب تم حصاده[1]. وهذا الواجب الديني لوحده يشكل دليلاً قوياً على أن إبراهيم عليه السلام ــ تماشياً مع التشريع الإلهي ــ لم يكلف إلا بتقديم ابنه البكر قرباناً، وهو ــ بكل تأكيد ــ إسماعيل عليه السلام.

وقد شغب علماء اليهود والنصارى ــ إذا استخدمنا مصطلح ابن حزم رحمه الله ــ على هذا الدليل باعتبار أن هذا الواجب يعود إلى شريعة اليهود في زمن موسى عليه السلام، أي بعد حوالي سبعة قرون من حادث الذبح، وبالتالي فإن إبراهيم لم يكن ملزماً به، إلا أن هذا الواجب «على عكس ما

---

= العرب بإسماعيل عليه السلام، إذ كانوا يلتزمون بعادة تقديم البكر من حيواناتهم قرباناً، ويؤكد ذلك ما أورده الإمام أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا فرع ولا عتيرة. قال ابن شهاب: والفرع: كان أهل الجاهلية يذبحون أول نتاج يكون لهم». المسند ج٢ــ حديث ١٠٣٣٥، ص٦٤٨.

(١) هناك تجاوز في استخدام مصطلح (عادة) هنا لأن هذا الأمر في ذلك الزمان لم تتوافر فيه شروطها، ولذلك كان الأحسن أن نقول أنه: تكليف.

يدعون، لا يعود إلى موسى ولا إلى إبراهيم بل إلى آدم، وذلك حسب رواية كتبهم نفسها، فمما ورد في سفر التكوين نعلم أن سر قبول الله لقربان (هابيل) هو أنه قدم (أول) مولود من قطيعه، بينما قدم (قابيل) قرباناً لم يشر السفر إلى كونه باكورة إنتاجه الفلاحي. ونفهم من هذا أن سر رضا الله على هابيل هو التزامه (بالعادة)[1] التي التزمها بعد ذلك إبراهيم، وبعده موسى».

**٢ ــ الثاني:**

وهو أن قصة الذبيح تكتسب أهمية خاصة في نفسها، وفي النتائج المترتبة عليها. أما في نفسها فهي امتحان من الله عز وجل لنبيه إبراهيم عليه السلام قاس به درجة يقينه ورجائه وعبوديته، وقد ترتب عليه مستقبل أجيال من البشر منذ الحادثة إلى اليوم. ومن (المعقول) تماماً أن يكون الامتحان على قدر

---

(١) Gloire a dieu- A.Kassab- tl-p24.

التكوين٢٢/ ١٦ ــ ١٧. والنص السابق يدل في ذاته على أن الذبيح كان إسماعيل إذ أن وعد التكثير (كحصى البحر)... لم يتحقق تاريخياً إلا في أبنائه من العرب. والملاحظ أن القرآن الكريم يوافق العهد القديم في النص على ترتب حصر فضل النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام على طاعته في أمر الذبح، والتعبير الذي يتواتر في القرآن الكريم هو ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾.



obeikandl.com

الهدف منه ــ لا نقصد هنا التساوي بينهما على الحقيقة لأن النتائج التي ترتبت على الحادث تتجاوزه تماماً ــ ولهذا فإن أمر التضحية بالولد في سبيل الوصول إلى رضا الله يفترض كونه أشد ما يكون امتحاناً. وقد تحققت هذه الشدة بأمر الله تعالى لإبراهيم أن يقدم له ابنه الوحيد، ابن الشيبة، إسماعيل، قرباناً. ونحن هنا لا ندعي أن التضحية (بإسحاق) ــ لو أمر بذبحه ــ كان سيكون هيناً، ولكننا نؤكد على أنه كان سيكون محتملاً بالنسبة لنبي، خصوصاً وأن له من يعوضه عنه من الأبناء. أما أن يكون الذبيح هو الابن الوحيد ــ إذا سلمنا أن أمر الذبح قد تقرر قبل ميلاد إسحاق ــ أو البكر ــ إذا تمَّ الذبح في وجود إسحاق ــ فهو الامتحان الحق.

ويتأكد ما نقوله هنا إذا نظرنا إلى النتائج التي ترتبت على هذا الحادث والمتمثلة في الجزاء العظيم من الله عز وجل الذي يفوق ــ بكل تأكيد ــ التضحية. وهذا الجزاء هو تمييز الله لإبراهيم عليه السلام حيث تباركت فيه، وبه جميع قبائل الأرض حسب التعبير الكتابي، وحصر النبوة في نسله وتكثيره حتى أصبح كحصى البحر، وذلك تبعاً لوعد الله تعالى في سفر التكوين بعد فداء الذبيح بالكبش «وقال: بذاتي أقسمت... إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر، ولم تمسك ابنك وحيدك،

أباركك مباركة، وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطىء البحر»[1].

وبعد هذه الدراسة في نصوص العهد القديم التي عرضت قصة الذبيح ومتعلقاتها فإننا نستطيع أن نؤكد ما يلي:

١ ــ أن هناك تحريفاً وقع في هذا النص المقدس بحذف اسم (إسماعيل)، وأن هناك دساً فيه يتمثل في وضع اسم (إسحاق). أما عن أسباب هذا الأمر فتكمن في عوامل عقيدية وتاريخية وموضوعية سنبحثها في حينها.

٢ ــ أن تبني (إسماعيل) باعتباره الذبيح يوافق تماماً حقيقة الأمر كما بينا ذلك بالأدلة الموضوعية التي عرضناها، وهو تبنٍ يقضي على الاعتراضات التي تقوم أمام اعتبار (إسحاق) معنياً بهذا الحدث. وهو أمر تستطيع التأكد منه وتبنيه كل عقلية نقدية مهما كان انتماؤها، بشرط عدم التحجر على التعليم التقليدي الكنيسي أو اليهودي. وسيزداد هذا الأمر وضوحاً عند عرضنا للرواية الإسلامية حول الموضوع نفسه.

### ٣ ــ الذبيح في الروايات الإسلامية:

قبل الغوص في بحث هذا الموضوع عند المسلمين نحب

---

(١) تفسير ابن كثير: ج٤، ص٢٦.

أن ننبه إلى خصوصية إسلامية فيما يخص هذا الحدث وغيره، وهي: أن نظرة الإسلام إلى أي أمر لا تؤخذ إلا مما تعارف المسلمون أنفسهم على اعتباره مصدراً مقدساً لهم، وهو: القرآن الكريم، الكتاب الذي يشهد له علماء الأرض من الشرق والغرب بالسلامة من التحريف والدس والحذف بغض النظر عن الإيمان بأنه وحي منزل من الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ أو عدم تصديق ذلك. والمصدر الثاني وهو سنته ﷺ بالمقاييس التي اعتمدها علماء الحديث المسلمين طرقاً لقبوله أو رفضه.

وسيلاحظ القارىء أن هناك روايات إسلامية كثيرة في حادث الذبح وهوية الذبيح وغيرها من الأمور التي ستعرض لها هذه الدراسة في مباحثها المختلفة، وهي روايات تتقبلها العقلية الإسلامية بصفة عامة رغم مناقضتها لصريح القرآن الكريم، ولذلك وجب التنبيه إلى أنها لا تمثل رأي الإسلام حول (قصة الذبيح) وأنها لا تعكس إلا رأي أصحابها، كما أن القداسة التي أحاطت بها في العالم الإسلامي ترجع إلى ظروف تاريخية وإنسانية لا علاقة لها بما توحي به المصادر الإسلامية الرسمية.

وبعد هذا نقول: إن قصة الذبيح في القرآن الكريم قد وردت في موضع واحد منه مجموعة في سورة الصافات إلا أن محيطها ومتعلقاتها يوجد متفرقاً في سور كثيرة منها سورة البقرة وإبراهيم... وغيرهما.

والقرآن الكريم ــ على العكس من التوراة ــ لا يحدد هوية الذبيح بالنص على اسمه، غير أننا نؤكد أنه يستعيض عن ذلك بأسلوب متميز وواضح، يفهم منه أن الذبيح هو (إسماعيل) عليه السلام. ويوجد كل ذلك في قصة الذبيح نفسها، وأيضاً في إيراده لمتعلقاتها.

ونشير هنا إلى أن إضراب النص الإسلامي عن تسمية الذبيح هو الذي دفع طائفة كثيرة من السلف الصالح وعلماء الأمة الإسلامية إلى تبني فكرة كون الذبيح هو إسحاق، متأثرين في ذلك بعوامل وصلت درجة تأثيرها إلى التغطية التامة على الحقيقة التي يتبناها القرآن الكريم. يقول الإمام ابن كثير في تفسيره: «وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً»[1]. ومن القائلين بذلك سفيان الثوري، وهو رأي ابن عباس كما روى عنه ذلك عكرمة، «وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد والشعبي، وعبيد بن عمير، وأبو ميسرة، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهري، والقاسم بن أبي برزة، ومكحول، وعثمان بن أبي حاضر، والسدي، والحسن، وقتادة، وأبو الهذيل، وابن

(١) السابق، ص١٩.

سابط. . .»[1]. وهو رأي جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، فقد صحح الإمام ابن كثير ــ رحمه الله ــ الرواية التي نقلت عن عبد الله بن مسعود، كما حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس[2].

وكما روي عن السلف أن الذبيح هو إسحاق فقد روي عن بعضهم أنه (إسماعيل) وهو رأي الإمام أحمد بن حنبل، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن كعب القرظي، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي. وقد وردت أسماء هؤلاء جميعاً في رواية عند ابن أبي حاتم[3]. كما أورد الإمام البغوي في تفسيره أنه رأي عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي الذي رواه كما يقول البغوي ــ عن ابن عباس، كما حكاه أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء[4].

---

(١) السابق، ص١٩.

(٢) السابق، ص٢٠.

(٣) السابق، ص٢٠. وانظر: معالم التنزيل: البغوي، مج٤، ص٥٦٧. . . وروح المعاني: الألوسي، ج٢٣، ص١٣٣.

(٤) انظر كتب التفسير التي أوردناها قبل قليل لترى مقدار هذه الحيرة. وليس أدل عليها من فتح الإمام الرازي إمكانية أن يكون الذبيح إسحاق رغم ميله الشخصي إلى النص على أنه إسماعيل، وكذلك =

والملاحظ في هذه الأسماء التي أوردتها الروايات الإسلامية أن بعضها يتكرر في القائمتين معاً، ومنهم: عبد الله بن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، والسدي، والحسن البصري... ونظراً لاستحالة نقد الرواية عن كل واحد منهم إذ نسبتهم إلى كلا الرأيين جاء مجملاً في كتب القدماء، فإننا سنسمح لأنفسنا باستخلاص نتيجة واحدة هنا هي: اختلاط الأمر على نسبة كبيرة من علماء السلف، وحيرتهم الشديدة أمام تحديد هوية الذبيح[1]. ومع هذا فمن الممكن تتبع آراء البعض منهم مثل: عبد الله بن عباس، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، وابن جرير الطبري. وذلك لاشتهارها عنهم، وتشكيل بعضهم لنظرة متكاملة عن الموضوع.

أما بالنسبة للإمام ابن جرير، فقد أورد في تفسيره الكثير من الروايات عن الصحابة رضي الله عنهم وعن علماء السلف، تعبر عن اختيارهم لهوية الذبيح. وهي الروايات التي يلاحظ فيها أن الجمهور يميل إلى اعتبار إسحاق عليه السلام هو المعني بهذا الأمر، وهو (اختياره). يقول رحمه الله: «قال أبو

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن: ابن جرير الطبري، ج، ص٥٤ ـ ٥٥.

جعفر: وأولى القولين بالصواب في المفدى... على ظاهر التنزيل قول من قال هو إسحاق لأن الله قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾. فذكر أنه فدى الغلام الحليم الذي بشَّر به إبراهيم حين سأله أن يهب له ولداً صالحاً من الصالحين... فإذا كان المفدى بالذبح من ابنيه هو المبشر به، وكان الله تبارك اسمه قد بين في كتابه أن الذي بشَّر به هو إسحاق... وكان في كل موضع من القرآن ذكر تبشيره إياه بولد فإنما هو معني به إسحاق، كان بيناً أن تبشيره إياه بقوله ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ في هذا الموضع نحو سائر أخباره في غيره من آيات القرآن. وبعد فإن الله أخبر جل ثناؤه... أنه بشَّره بالغلام الحليم عن مسألته إياه أن يهب له من الصالحين، ومعلوم أنه لم يسأله ذلك إلا فيحال لم يكن له فيه ولد من الصالحين. لأنه لم يكن من ابنيه إلا إمام الصالحين. وغير موهوم منه أن يكون سأل ربه في هبة ما كان قد أعطاه ووهبه له. فإذا كان ذلك فمعلوم أن الذي ذكر تعالى... في هذا الموضع هو الذي ذكر في سائر القرآن أنه بشَّره به، وذلك لا شك أنه إسحاق إذ كان المفدى هو المبشَّر به»[1].

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، ج٢٢، ص١٤٨.

وقد عوَّل الإمام ابن جرير في اختياره على قوله تعالى ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾. أما الأمر الثاني الذي بنى عليه اختياره فهو أنه قد اعتبر مسألة إبراهيم ربه أن يهبه ولداً من الصالحين دليلاً على عدم وجوده لأنه «غير موهوم منه أن يكون سأل ربه في هبة ما كان أعطاه».

ويبدو واضحاً أن الإمام ابن جرير قد غفل عن كثير من الحقائق التاريخية والاعتبارات اللغوية في نص الذبح في سورة الصافات وفي غير ذلك من المواضع التي ذكر فيها القرآن الكريم قصة إبراهيم عليه السلام، وإلا لما كان هذا رأيه. ومن هذه الاعتبارات أن دعوة إبراهيم أن يهبه من الصالحين تدل على عدم وجود الولد أصلاً، وليس على عدم وجود الولد الصالح كما توهم. ويدل على بطلان فهمه لهذا الأمر الأخير أن طلب إبراهيم (ولداً من الصالحين) لا يعني أكثر من أن نعمة الولد تكون (أكمل) إذا كان صالحاً ــ مع عدم وجوده بدءاً كما قلنا قبل قليل ــ وهو ما لم ينتبه إليه الإمام ابن جرير ولا وضعه في الحسبان أصلاً[1].

والحقيقة أن الفكرة التي ارتكز عليها الإمام ابن جرير لبيان اختياره تؤدي إلى أحد الأمرين:

---

(١) بغية الدارسين لمناهج المفسرين: د.علي حسن رضوان، ص٨١.

١ ــ إما إلى أن (إسحاق) هو الولد البكر لإبراهيم عليه السلام.

٢ــ أو أن إسماعيل لم يكن من الصالحين رغم كونه البكر.

ولم يقل بأحد هذين الأمرين أحد من علماء الإسلام ــ وغير الإسلام ــ فيما نعلم. هذا إضافة إلى أن النص في سورة الصافات واضح في أن الذبيح هو إسماعيل بدلائل لغوية وأسلوبية و(دينية) لا يردها إلا من اتخذ منهجاً له تقديم الروايات المأثورة عن السلف على الحقائق التي ينقلها القرآن الكريم، والتي لا تحتاج لبيانها إلى أكثر من (النظر) الذي كان الإمام ابن جرير يرده إذ «ينكر بقوة على من يقول برأيه، ويلزم بضرورة الرجوع إلى علم الصحابة والتابعين»[1].

ومن البديهي أن نقرر بأن منهج الإمام الطبري ــ وغيره ــ كان سيكون سليماً لو تحقق «النقل الصحيح» الذي يشترطه، لكننا نراه ينقل عشرات الأقوال المتناقضة ثم يختار رأي مجموعة دون مرجح، إلا إذا اعتبرنا (رأيه) الخاص والذي لا يقوم على نظر سليم أحد أنواعه، وفي هذه الحالة فقد أخطأ الترجيح.

---

(١) قصص الأنبياء: ابن كثير، ص١٦٢.

هذا بالنسبة لاختيار الإمام ابن جرير، أما بالنسبة لغيره من العلماء ممن ذكرت سابقاً، فإنني سأعرض لآرائهم مع تقدم مباحث هذه الدراسة. ويجدر التنبيه منذ الآن على أن نص البغوي من أن محمد بن كعب القرظي حكى رأيه عن ابن عباس خاطىء تماماً، إذ أن القرظي يستدل لرأيه اعتماداً على نصوص القرآن الكريم، وليس على روايات ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ وإلا لتبنى موقفه من أن الذبيح هو (إسحاق) كما سيتضح مع تقدم هذه الدراسة، وهو الرأي الذي نخالف به الإمام ابن كثير الذي صحح الرواية التي تنقل عنه القول بإسماعيل ذبيحاً. ولكننا حفاظاً على بناء هذا البحث سننصرف عن هذه المسألة على أن نعود في الموضع المناسب.

ومن المؤكد أن الميل الذي لاحظناه من علماء السلف للقول بإسحاق ذبيحاً هو ما دفع الإمام ابن كثير ــ مثلاً ــ إلى التنبيه على أن موقفهم هذا ليس اتباعاً للنص القرآني، مع نصه على مصدرهم، إذ «أخذوه ــ والله أعلم ــ من كعب الأحبار، أو من صحف أهل الكتاب»[1]. ويضيف الإمام بأنه لا يوجد لرأيهم سند من«حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم،

---

(١) السابق، ص١٦٢.

بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل»[١].

وما حكم به الإمام ابن كثير من خلو الحديث الصحيح من النص على إسحاق ذبيحاً هو الحق، وقد أكد هذا الإمام البغوي في تفسيره فقال: «وقد ورد في ذلك حديث لو صح لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده»[٢]. ومن هذه الأحاديث التي ضعفها العلماء ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه ينص ﷺ على أن إسحاق هو الذبيح، ولكنه حديث غريب منكر، ففيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف الحديث. وقد استنكره الإمام ابن كثير فقال: «وأخشى أن يكون في الحديث زيادة مدرجة»[٣].

وقد وردت أحاديث أخرى مشابهة لما أورده ابن أبي حاتم، وخصوصاً الرواية التي ورد فيها أن (يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن ذبيح الله إسحاق). وقد صحح الإمام ابن كثير رواية تنقل هذا الموقف عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولكنه ضعف رفع جملة الآثار التي ذكرناها إلى النبي عليه الصلاة

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٤، ص١٩.

(٢) انظر الحديث ونقده في: تفسير ابن كثير، ج٤، ص١٧.

(٣) السابق، ص١٧.

والسلام»[1].

وأورد الإمام أحمد عن ابن عباس حديثين في الموضوع، أحدهما موقوف، وقد تبنى فيه القول بإسماعيل ذبيحاً[2]. أما الحديث الثاني فمرفوع، وفيه النص على أن الذبيح هو إسحاق[3]. ومعنى هذا أن الإمام أحمد قد نقل ما يعبر عن الموقفين اللذين وقفهما ابن عباس رضي الله عنهما من الأمر، ولم يخرج عما لاحظناه من نسبة النقيضين لهذا الصحابي. وهو الأمر الذي أشرنا إليه سابقاً، والذي تؤكده العودة إلى بعض المصادر التي نقلت ــ أو يفترض ذلك ــ عن ابن عباس.

قد عدت إلى صحيح الإمام البخاري رحمه الله فوجدته يروي حديث (يوسف نبي الله ابن نبي الله..) بطرق مختلفة، ليس في أي منها إضافة (ذبيح الله) إلى اسم إسحاق عليه السلام. حدث الإمام البخاري في كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه ــ قال: «قيل للنبي ﷺ، من أكرم الناس؟ قال: أكرمهم أتقاهم. قالوا: يا نبي الله ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس

---

(١) المسند، ج١، حديث ٢٧٠٧، ص٣٦٩.

(٢) السابق، حديث ٢٧٩٤، ص٣٨١.

(٣) انظر: تنوير المقباس تفسير ابن عباس، ص٤٧٤.

يوسف نبي الله ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ فقالوا: نعم. قال: فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[1]. ثم ــ زيادة في الاطمئنان ــ عدت إلى صحيح مسلم وتصفحت أبوابه كما فعلت مع صاحبه قبله، فوجدته رحمه الله لا يورد أي حديث عن إسحاق باعتباره الذبيح.

وقد يسأل سائل فيقول هل معنى خلو الصحيحين من هذا الموضوع عدم وجوده وصحته في غيرهما من كتب السنن؟

ونقول: إن ذلك ممكن، ولكننا اطمأننا إلى الحكم بعدم وجود ذلك إلى شيئين:

١ ــ نصر العلماء على ذلك مثلما رأينا قبل قليل مع الإمام ابن كثير والإمام البغوي رحمهما الله.

٢ ــ الملاحظة التي خرجنا بها من قراءتنا لصحيح الإمامين البخاري ومسلم رحمهما الله، والتي نستطيع اعتبارها (ظاهرة) تستحق الدراسة والتنويه بقدر هذين العالمين الجليلين وهي: خلو كتابيهما من الحديث، ليس عن إسحاق باعتباره

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، حديث ١٧٦، ص٢٩١. وقد أورد مثل هذا الإمام أحمد في مسنده، ج٢، حديث ٩٤٤٧، ص٥٦٨. وانظر: المسند، ج٢، حديث ٨٣٦٦، ص٤٣٨.

الذبيح فقط، ولكن عن حادث الذبح ذاته، ومكانه، ونوع الفداء، ومهجر إسماعيل. فليس فيهما أي قصة مرفوعة إلى النبي ﷺ من مثل القصص التي نلاحظها عند المؤلفين الآخرين خصوصاً المفسرين والقصاص. وهي الأمور التي سنتأكد من خلو حديث صحيح مرفوع إلى النبي ﷺ فيها مع تقدم هذه الدراسة.

وبعد التنبيهات والملاحظات التقويمية التي أوردناها سابقاً نبدأ في دراسة الطرح القرآني فيما يخص حادث الذبح وهوية الذبيح. يقول الله عز وجل في سورة الصافات بعد أن روى نبذاً من قصة إبراهيم مع قومه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾[1].

والقرآن الكريم بهذا الأسلوب السامي يصور حادث الذبح

---

(١) الصافات: ٩٩ ــ ١١٣.

ويعرض لهوية الذبيح، إضافة إلى ما ترتب على ذلك من نتائج تتمثل في تمييز الله عز وجل لعبده ونبيه إبراهيم وتفضيله له بحصر النبوة في نسله.

وسنبدأ الغوص في هذه الآيات من نقطة تضعنا في إطار التقويم لبعض أراء علمائنا المعاصرين الذين عرضوا لهذا الموضوع، والذين لم يجدوا أحسن من الخطأ وسيلة لتأكيد قولهم بإسماعيل ذبيحاً، كما أن هذا المدخل سيكون مقدمة صالحة لمعالجة بعض القضايا الأسلوبية في آيات سورة الصافات، وهو أحد المناهج التي سنعتمد عليها في توضيح أمر الذبيح.

لقد اعتبر الأستاذ عبد الوهاب النجار رحمه الله الضمير الوارد في كلمة (عليه) في الآية الأخيرة التي ذكرناها من سورة الصافات دليل على كون الذبيح (إسماعيل) «فالضمير ولاشك... راجع إلى الذبيح، وعود الضمير إلى الغلام الذبيح، وذكر اسم إسحاق معه صريحاً، يقتضي التغاير بين الذبيح وإسحاق»[1].

والحقيقة أنه رغم تأكيد الأستاذ النجار لفكرته

---

(١) قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار، ص١٠٢. والآية المقصودة هي قوله عز وجل: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾.

بقوله«ولاشك» إلا أننا نرى أن الشك، كل الشك يخيم على دليله، إذ أن الضمير لا يعود على الذبيح أصلاً. وذلك أن آخر ضمير يرتبط بالذبيح في الصافات هو قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾. ثم يعود القرآن بعد هذا مباشرة إلى ذكر إبراهيم عليه السلام. وقد قررنا في البدء أن مدار التوحيد الحديث كله هو هذا الرجل، وأن قصة الذبح هي أحد فروع شجرة هذا النبي الوارفة، فلذلك لا يبدو غريباً أبداً أن يرجع إليه القرآن الكريم، حالما انتهى من إيراد أحد فصول قصته، وهو: موضوع الذبح، ولذلك فإن كل ما جاء بعد قوله تعالى ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ يقع في جانب جزاء الله عز وجل لإبراهيم على طاعته لأمره، ومن ذلك إهداؤه ابناً ثانياً هو إسحاق عليه السلام. وهذا هو الدليل الأسلوبي على أن الذبيح هو إسماعيل كما سنرى بعد قليل. ومن هنا يبدو أن عدم إدراك واعتبار هذا التتابع في قصة إبراهيم هو ما جعل الأستاذ النجار ــ والغالبية من علمائنا القدامى ــ يخطئون في تحديد هوية الذبيح، أو الاستدلال على المسألة من القرآن الكريم.

ولا بأس الآن من الإبانة عن موضع خطأ الأستاذ النجار، وهو يكمن في أن القرآن الكريم ــ يقول بعد ذكر الفداء مباشرة ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ فقد ذكر هنا اسم إبراهيم صريحاً، مما يبين انصراف الأخبار عن الذبيح إلى

غيره. ولما كان من المعلوم أن جميع الضمائر الواردة بعد الاسم الصريح ــ في العربية ــ تعود عليه إلا إذا ورد دليل يصرف الضمير إلى غيره من المذكورين قبله، فلما انتفى هذا الدليل انتفى المسوغ اللغوي الذي يسمح بإرجاع الضمير إلى إسماعيل كما ذهب إلى ذلك الشيخ النجار. وقد انتفى قبل ذلك هذا المسوغ بالنظر إلى القصة الكلية، أي قصة إبراهيم عليه السلام. وتفصيل ما ذكرناه بنصوص القرآن الكريم قوله تعالى بعد الآية التي ذكرناها قبل قليل ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ وهو حديث عن إبراهيم عليه السلام، وبعدها ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ والضمير هنا يعود على إبراهيم ــ أيضاً ــ ثم بعدها يورد البشارة فيقول: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (ولا شك) أن الضمير في هذا الموضع أيضاً يعود على إبراهيم. ثم يقول عز من قائل: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ والضمير في (عليه) ــ أيضاً ــ يعود على إبراهيم.

وإذا عدنا إلى البحث في القرآن الكريم فإننا نجد أن الأدلة التي يجب أن تبرز لتأكيد القول بأن إسماعيل هو الذبيح، تكمن في دليلين:

١ ــ أن البشارة بمولد إسحاق تابع من توابع قصة الذبح مما يخرجه من هذا الشرف، فهو حين الحادث لم يكن موجوداً بعد. أما الذي كان مع إبراهيم حينذاك فهو إسماعيل مما يجعله

معيناً بوضوح تام لأن يكون الذبيح. ونتأكد من هذا إذا رجعنا إلى الآيات من سورة الصافات التي تعرض لقصة إبراهيم قبل ميلاد البكر من أولاده، حيث نراه وهو يدعو إلى عبادة الله الواحد فيظهر له قومه عداء شديداً، ونشاهدهم وهم يجمعون له الحطب ليحرقوه، يقول القرآن الكريم مصوراً كل ذلك: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ (يقصد نوحاً عليه السلام) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ . . . قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾[1]. وفارق لذلك قومه وهي «أول هجرة في سبيل الله للبعد عن عبادة غير الله»[2]. واستشعر بعد هجرته عليه الصلاة والسلام قلة أهله وعقم امرأته، وثار ذلك الهاجس في نفسه عند إزماع الرحيل كما يقول الشيخ ابن عاشور رحمه الله، ولذلك طلب الولد فبشره الله بولد حليم. والفاء في (فبشرناه) للتقعيب، أما زمن التبشير فيحتمل أن ذلك كان عقب دعائه «وهو الظاهر. . . وإن كان الله بشَّره بعد ذلك حين حملت منه هاجر جاريته، بعد خروجه بمدة طويلة، فالتعقيب نسبي. . . كما يقال: تزوج فولد

---

(١) الصافات: ٨٣ ــ ٩٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، ج٢٢، ص١٤٩.

له... وعلى الاحتمالين، فالغلام الذي بشِّر به هو الولد الأول الذي ولد له»[1]. وبعد ذلك يورد القرآن الكريم قصة الذبح باعتبارها تتعلق بهذا الولد الذي بشِّر به إبراهيم عليه السلام بعد خروجه من آرام النهرين دون غيره، وهو إسماعيل عليه السلام، لأنه البكر من ابنيه بلا خلاف.

وهكذا تبدو قصة إبراهيم في سورة الصافات تبدو وكأنها تطير طيراناً لتنقل لنا قصة تفضل الله تبارك وتعالى عليه على سبيل الإجمال، ولكنها ترتب الحوادث الخاصة بإيمانه وتفضل الله تعالى عليه ترتيباً زمنياً دقيقاً. وقد أوردت سورة الصافات قصة الذبح بعد ميلاد أول أبناء هذا النبي الكريم، مما لا يدع مجالاً للشك من أن الذبيح هو البكر أي إسماعيل. ويتأكد هذا التوجيه مع مواصلة سورة الصافات قص الأحداث فنشهد البشارة بمولد إسحاق تأتي بعد رواية حادث الذبح والانصراف عنه تماماً. ويتأسس على هذا قولنا: إن مولد إسحاق جاء على سبيل الجزاء على طاعة إبراهيم ربَّه، وتقديمه بكره للذبح في سبيله. ويتقوى هذا من حيث اللغة فيما لاحظه الشيخ ابن عاشور في أسلوب العطف في الآيات، إذ يرى أن «البشارة بإسماعيل لما كانت عقب دعاء إبراهيم أن يهب له من

---

(١) السابق، ص١٤٩.

الصالحين عطفت هنا بفاء التعقيب، وبشارته بإسحاق ذكرت في هذه السورة بالواو، عطف القصة على القصة»[1].

ولا بأس من التنبيه مرَّة أخرى على ما ذكرناه عند معالجتنا للنص التوراتي من أن هذا الابتلاء لإبراهيم ورد لإظهار عزمه، وإثبات علو مرتبته في طاعة ربه، ولا يكون ذلك تاماً إلا بعد أن أقر الله عينه بإجابة سؤاله في الولد، ثم بالأمر بذبحه لينعدم نسله، وهذا أشد الابتلاء خصوصاً وقد كان هذا الولد هو وحيده. وهذا المعنى يؤخذ ببساطة من آيات سورة الصافات بترتيبها الذي نبهنا عليه قبل قليل.

٢ ــ أما الدليل الثاني فلا يقل دلالة عما قررناه قبل قليل، وهو يتأسس على الحقيقة التالية، وهي: أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، أي أن النظر في مجمل ما ورد فيه عن أمر معين يساعد بشكل مباشر في حل الإشكاليات التي قد تطرح حين ننظر إلى جزئية فقط من ذلك الأمر. وبيان ذلك فيما نحن بصدده أن هناك وصفاً جوهرياً قد ورد في نعت الذبيح عند ورود قصته في سورة الصافات، وهو وصفه بالصبر حيث رد على ما عرضه عليه والده من أمر رؤيا الذبح قائلاً: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾. وقد ورد هذا

---

(١) السابق، ص٥٠١.

الوصف عينه نعتاً لإسماعيل عليه السلام في موضوع آخر من القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾. ومن المعروف أن إسحاق لم يوصف بمثل هذه الصفة في أي موضع من القرآن، فدل هذا على أن إسماعيل هو الذبيح.

وقد كنا نستطيع الاكتفاء في بحث هوية الذبيح بما ظهر لها بيناً من النص القرآني في سورة الصافات، ولكن لا بأس من زيادة الأمر وضوحاً، خصوصاً وأننا سنستفيد من النظر في الأدلة الجديدة البحث في نصوص قرآنية أخرى تشكل أحد معالم قصة إبراهيم، إضافة إلى البحث في تأثير الروايات الإسلامية الضعيفة والروايات الكتابية في تشكيل بعض علمائنا القدامى رحمهم الله، وتأثير ذلك في تأويلهم للبين للقرآن الكريم ليوافق ما وقر في أذهانهم منها.

ومن هذه الأدلة ما اعتمد عليه محمد بن كعب القرظي رحمه الله، وقد كان من العلماء القدامى المتيقنين أن الذبيح هو إسماعيل. ونحن نعتقد أنه كان يقابل بمقاومة شديدة لفكرته تدل على أن جمهور السلف كانوا يعتقدون أن الذبيح هو إسحاق. نستفيد هذا من إكثاره تكرار رأيه كما يدل عليه نص

ابن إسحاق إذ يقول عنه «سمعته يقول ذلك كثيراً»[1]. وقد كان رحمه الله يستدل على رأيه بما ورد في سورة هود، حيث يقول عز وجل: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾[2]. فيقول في ذلك: «كيف تقع البشارة بإسحاق، وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبحه، وهو صغير قبل أن يولد له»[3].

وقد اعترض الإمام السهيلي على استدلال القرظي في كتابه (التعريف والأعلام) بما حاصله أن قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ جملة تامة، وأن قوله بعدها: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ جملة أخرى، وهي ليست في حيِّز البشارة. واستدل لرأيه بأن قال: لأنه لا يجوز ــ من حيث العربية ــ أن يكون مخفوضاً(يقصد يعقوب) إلا أن يعاد معه حرف الجر. أي أن المعنى الذي ذهب إليه محمد بن كعب القرظي كان سيكون صحيحاً عند السهيلي لو أن الآية وردت هكذا ﴿ومن وراء إسحاق بيعقوب﴾[4]. وقد نقل الإمام ابن كثير رحمه الله هذا النقد عن السهيلي، وعلق عليه قائلاً: «وفي هذا الذي قاله

---

(١) تفسير القرآن الكريم: ابن كثير، ج٤، ص٢٠.
(٢) هود: ٧١.
(٣) قصص الأنبياء: ابن كثير، ص١٦٢.
(٤) انظر: روح المعاني: الألوسي، ج٢٣، ص١٣٥.

نظر»[1]، ولكنه لم يبين ما (النظر) في ذلك، ولذلك سنحاول بيانه بإذن الله.

إن الإمام السهيلي يصر على التمييز بين جملتين، يجعل الأولى بشارة بمولد إسحاق، ويجعل الأخرى خبراً لا علاقة له بالبشرى، وإننا نتساءل: ما الذي دفعه إلى هذا يا ترى؟ هل هو الفهم المجرد للنص؟ إننا نجد أنفسنا مضطرين للإجابة السلبية هنا. وذلك لأننا رأيناه يحتج لقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ بقوله: «إن إسماعيل لم يكن عنده (يقصد إبراهيم عليه السلام) إنما كان في حال صغره بجبال مكة، فكيف يبلغ معه السعي»[2]. فهذا التصور الخاطىء المبني على روايات ضعيفة، هو نفسه الذي جعله يضطر اللغة إلى وجه غريب كما سنرى بعد قليل. ويتضح تأثير ضعيف الرواية في فكرته إذا نبهنا إلى أن السهيلي لما كان يعتقد ابتعاد إسماعيل عن ولده، وبالتالي بقاء إسحاق وحيداً معه، فإنه لم يجد مناصاً من القول بهذا الأخير ذبيحاً، ثم ابتدأ بعد ذلك يتأول النصوص القرآنية التي بدت له مخالفة لهذا الطرح، إذ استحال في نظره ــ كما يستحيل فعلاً ــ أن ينص القرآن على البشارة بإسحاق وبولد

(١) قصص الأنبياء، ص١٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٣.

لإسحاق ثم يؤمر إبراهيم عليه السلام بذبحه. ولهذا كله فصل بين شطري البشارة. وسنوضح في مبحث آخر من مباحث هذه الدراسة خطأ فكرة السهيلي وغيره في سن (إبعاد)، أو(ابتعاد)، أو (هجرة) إسماعيل عن أبيه، وحينها سوف نرى مدى تأثير الفكرة الإسلامية الخاطئة عن هذا الموضوع، والتي لقيت مع هذا قبولاً تاماً لدى علمائنا، على فهم الإمام السهيلي للقضية التي نبحثها في هذا الموضع[1]..

---

(١) نحب أن نشير هنا إلى أن عدم الاهتمام بالقصة القرآنية في جملتها قبل الانصراف إلى فقه أسلوبها يشكل أحد معوقات الفقه السليم للنصوص، وإذا أضفنا إلى هذا سوء النية في فهم الأمور حصلنا على رأي المستشرقين الذين أساؤوا إساءة بالغة في فهمهم للآية من سورة هود التي نحن بصدد بحث رأي الإمام السهيلي فيها، وهي قوله عز وجل: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، إذ اعتبروا معناها دالاً على أن الرسول ﷺ كان يعتبر ابناً لإبراهيم في أول أمره، ثم لما اتصل باليهود في المدينة صحح معلوماته عن القضية، واعتبره حفيداً له كما هو واقع الأمر. ويستشهدون بنص البقرة على هذا التصحيح، وهو قوله عز وجل: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾. يقول الأستاذ محمد عرفة معلقاً على طرحهم: وإنما ذهبوا إلى هذا لأن الآية التي تدل على المعنى الأول المزعوم مكية، والثانية مدنية. والحقيقة أن هناك آيات مكية كثيرة تذكر أن يعقوب ابن إسحاق لا إبراهيم مما =

وإذا عدنا الآن إلى الطرح اللغوي للسهيلي، فإننا نجد فيه صورة التوجيه المقصود بغرض فصل جزئي البشارة. ودليلنا على ذلك أن التخريج اللغوي الذي اقترحه غير مقبول بالنسبة لمنطق اللغة العربية ذاتها، وذلك أن جملة ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ هي جملة من مبتدأ وخبر، حدث فيها تقديم وتأخير لغرض بلاغي بيِّن، وهو التركيز على اسم (إسحاق) في الآية، حتى يتم إبرازه باعتباره أحد ورثة إبراهيم الذين ستمتد (بهم) النبوة في نسله، إضافة إلى الابتعاد عن تقديم اسم ابنه (يعقوب) عليه لو رتبت الآية الترتيب العادي ــ التابع للمعنى ــ وهو: (ويعقوب من وراء إسحاق). ولذلك فإن كلمة (يعقوب) في الآية مبتدأ مؤخر، وشبه الجملة (من وراء إسحاق) شبه جملة من جار ومجرور متعلقة بمحذوف ــ نفترض أنه يتمثل فيما افترضه السهيلي نفسه وهو الفعل وهب ــ خبر. فتكون الجملة من حيث المعنى: (ويعقوب وهبناه من وراء إسحاق).

---

= يجعل رأيهم في جهل الرسول ﷺ... ثم تنبيه للحقيقة بعد ذلك ادعاء وكذباً محضاً. ومن هذه الآيات: ﴿الحمد لله الذي وهبني على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء﴾ ولم يقل إسماعيل وإسحاق ويعقوب. ومن ذلك يعلم أن محمداً ﷺ كان يعتقد في يعقوب عقيدة واحدة، وهي أنه ابن إسحاق. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج٢، ص١١١.

ويبقى أنه من الممكن أن يتساءل متسائل: هل يفهم من الآية السابقة أن يعقوب هو ابن إسحاق؟

وجوابنا هنا هو: نعم. يفهم ذلك من معرفة المخاطبين بأن يعقوب هو ابن لإسحاق لا لإبراهيم. وهو أمر يستفيده المتسائل من ورود آيات قرآنية قبل هذه تنص على ذلك. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن (الصورة) التي يشكلها القرآن في العقول من النصوص المتعددة عن إبراهيم تبين ذلك بشكل واضح، خصوصاً فكرة (امتداد النبوة) في نسله، وهو الأمر الذي يفترض وجود الأحفاد لا الأبناء فقط.

إضافة إلى ما ذكرنا، نحب التنبيه إلى ما طرحه الإمام السهيلي من وجوب اتصال المعطوف بالباء لكي يصلح للاشتراك في الحكم مع المعطوف عليه غير ثابت من حيث اللغة، حيث يكفي لاشتراكهما في الحكم مجرد انصراف ذهن المستمع إلى ذلك بكل القرائن الممكنة، والتي من جملتها القرائن المعنوية. ودليل ما ذكرناه هنا هو ورود ذلك في القرآن الكريم، حيث يقول عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بكسر الميم، حيث يفهم من الآية ــ على الرغم من خلاف بعض العلماء في المسألة ــ النص على أننا نسأل يوم القيامة بتفريطنا في حق الله، وكذلك بتفريطنا في حق علائق الرحم.

وبعد هذه الدراسة للنصوص الإسلامية والكتابية نستطيع أن نطمئن إلى مجموعة من النتائج:

١ ــ أن القرآن الكريم يجعل (إسماعيل) هو الذبيح، وذلك لأمور يفهمها البشر بيسر، ونستطيع التعبير عنها بكلمة (بكورية) إسماعيل. وقد أوضحنا عند الدراسة أهمية هذه الصفة لاكتمال امتحان الله لإبراهيم عليه السلام.

٢ ــ أن تبني المسلمين القدامى من السلف الصالح رضوان الله عليهم والمحققين من علمائنا لفكرة كون الذبيح هو (إسحاق) يعود إلى عدم الانتباه إلى الأسلوب القرآني في سَوْقِ القصة، إضافة إلى عدم إدراكهم للأبعاد الحقيقية للارتباط الشديد بين الدعوة إلى التوحيد الخالص وبين إبراهيم عليه السلام. هذا من ناحية، وهو يعود من ناحية أخرى إلى تأثرهم الكبير بالروايات الكتابية والضعيف من الروايات الإسلامية، وتصديقهم لما تطرحه دون كثير اهتمام بالمناقشة. وسنرى كل هذا بوضوح فيما سيأتي من الدراسة.

٣ ــ أن العهد القديم فيه من الثغرات النصية ما يكفي للشك في حقيقة ما يطرحه بصفة عامة. وأن كون (إسماعيل) هو الذبيح في النصوص الموجودة بين أيدينا منه واضح تماماً. وهو أمر يقبله كل عاقل نظر فيها، خصوصاً إذا كان ذا معرفة بالأصول العقيدية في الديانة اليهودية ذاتها.

**٤ ــ تفسير تحريف التوراة وسكوت القرآن الكريم عن النص على الذبيح:**

وقبل أن نطوي هذا المبحث نجد أنفسنا مضطرين ــ تحقيقاً لهدف أساسي من أهداف الدراسة الدينية المقارنة ــ لمحاولة الإجابة على سؤالين مهمين:

أولهما: ما السر في تحريف العهد القديم وادعاء أن الذبيح هو إسحاق؟

وثانيهما: ما السر في عدم نص القرآن الكريم على اسم الذبيح صريحاً؟

أما بالنسبة لتحريف اليهود للنص الكتابي فإننا نرى علماء المسلمين مجمعون على أن الأمر مقصود، وقد حملهم عليه «حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ. وإسحاق والد يعقوب ــ وهو إسرائيل ــ الذين ينتسبون إليه. فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرَّفوا كلام الله، وزادوا فيه، وهم قوم بهت، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء»[1].

ونحن نرى أنه قبل أن نحكم في هذا الأمر الهام يجب أن

---

(١) قصص الأنبياء: ابن كثير، ص١٦٢.

ندرس مجموعة من الاعتبارات التي أحاطت بالقضية، ومنها:

١ ــ إن العهد القديم، وبغض النظر عن تناقضه مع نفسه ومخالفته للقرآن الكريم في مواضع معينة، قد أورد الكثير من التفاصيل عن حياة إسماعيل عليه السلام. وأن التحريف لم يحدث إلا فيما يخص موضوعاً واحداً، وهو موضوع النبوة. وإننا ندعي في هذا المجال أن التحريف في هذا الأصل هو سبب الدس في موضوع (الذبيح) وغيره مما نستطيع اعتباره (متعلقات) الموضوع الأصلي. ولذلك فإننا ندعي أيضاً أن معرفة أسباب التحريف في موضوع النبوة عند اليهود يشكل جانباً مهماً من جوانب التحريف في كثير من النصوص التي عرضت لقصة إسماعيل وإسحاق في العهد القديم. وهذا يعني أن التحريف في الأصل قد جر كاتب القصة التوراتية ــ أو الكتبة ــ إلى متابعة تفاصيلها في كل النصوص ليجعلها تتوافق مع ما أجراه من تغييرات في الأصل. وأبسط الأدلة على هذا ــ وأقواها أيضاً ــ هو سهولة اكتشاف مواضع التحريف كما رأينا في نص سفر التكوين حيث وضع إسحاق بدل إسماعيل. وهذه الاعتبارات المذكورة تجعل من عنصر (القصد) إلى التحريف بالمعنى الذي طرحه الإمام ابن كثير وغيره أحد الدوافع إلى التحريف لا العامل الوحيد فيها، خصوصاً وأنه لا يفسر لنا المانع الذي حال بين اليهود وبين حذف اسم

إسماعيل وقصته أصلاً من كتبهم.

وبناء على ما سبق سنسعى فيما يلي لمعرفة العناصر التي لم ينتبه إليها علماؤنا، ولما كان من ضرورات ذلك معرفة قصة إسماعيل في العهد القديم، فسنعرض الطائفة الثانية من القصص الكتابي عن إسماعيل ــ الطائفة الأولى سردناه فيما سبق من البحث، وستأتي روايات أخرى في مباحثه التالية ــ عليه السلام.

يذكر العهد القديم وعد الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام قبل ميلاد ابنيه ــ عند ذكر تغربه في أرض الكنعانيين ــ بأن نسله سيرث كل الأرض التي تمتد حوله « لأن جميع الأرض التي ترى، لك أعطيها، ولنسلك إلى الأبد، وأجعل نسلك كتراب الأرض»[1]. ويعيد العهد القديم هذا الوعد لإبراهيم في مناسبات كثيرة بعد ميلاد إسماعيل، ومنها: وعد الله له بأن الذي يرثه يخرج من صلبه «وقال أبرام: أيضاً، إنك لم تعطني نسلاً... فإذا كلام الرب قائلاً: ...الذي يخرج من أحشائك هو يرثك»[2]. والإجماع حاصل على أن الذي خرج من صلب إبراهيم ــ وليس أحشاءه كما هو نص التوراة ــ أولاً هو

(١) سفر التكوين، ١٣/ ١٥ ــ١٦.
(٢) السابق، ١٥/ ٣ ــ ٤.

إسماعيل. وعلى هذا فمن المقبول تماماً أن يكون هو الوارث لوعد الله لأبيه، وحتى إن شاركه في ذلك إسحاق، فيبقى دائماً إسماعيل وارثاً للعهد باعتباره ــ على الأقل ــ شريكاً لأخيه فيه. وهذا الذي ذكرناه، وقررنا أنه أمر يقبله كل العقلاء في هذا العالم مهما اختلفت أزمانهم ودياناتهم هو بالذات الطرح القرآني.

أما بالنسبة للتأويل اليهودي لهذه النصوص الواضحة الدلالة فقد حدث بعد ذلك بقرون طويلة، وعندها جعل (إسحاق) هو وريث هذا العهد لوحده، وقد نتج عن ذلك إضافة الكتبة إلى النصوص الأصلية ما يؤسس لهذا الفهم الطارىء، فأوقعوا فيها التناقض. ومن ذلك كلمة (وحيدك) كما ذكرنا، وجملة «ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق»[1].

ويؤكد الكتاب المقدس ما يتبادر إلى عقولنا ــ دون جهد ــ من أن الوعد يتعلق بإسماعيل بنصوص أخرى مثل قوله «هاأنا أباركه، وأثمره، وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة»[2]. كما يبدو إحجام كتاب العهد القديم عن حذف اسم إسماعيل من وعد أبيه واضحاً في النص التالي،

---

(١) السابق، ١٧ ــ ٢١.

(٢) السابق، ١٧ ــ ٢٠.

رغم التحريف في جعل إسحاق ــ وحده ــ هو حامل عهد نبوة أبيه» لأنه بإسحاق يدعي لك نسل، وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك»[1].

وبعد هذا السرد للنصوص التوراتية يجوز لنا الآن إبداء رأينا في الإجابة على السؤال المطروح، وهو: ما الدافع إلى تحريف اليهود لكتاباتهم؟

إننا نعتقد أن علماء اليهود المتأخرين رأوا أن النبوة قد استمرت في نسل إسحاق ردحاً طويلاً من الزمان، حيث لم تنقطع أبداً. وقد عاصر جميع كتاب العهد القديم هؤلاء الأنبياء، أو كانوا قريبين منهم من حيث الزمان، وعلموا أنهم من ولد إسحاق عليه السلام. وهو الأمر الذي جعلهم يحصرون النبوة فيه وفي نسله، خصوصاً وأنهم لاحظوا أيضاً انقطاع النبوة ــ إما على الحقيقة وإما لأنهم قد جهلوا ذلك بعد ابتعادهم الطويل عن المنطقة بعد أن ارتحلوا إلى مصر في زمن يوسف عليه السلام ــ في نسل إسماعيل عليه السلام. ولذلك أضافوا النصوص التي تجعل إسحاق هو الذبيح، كما أضافوا ما يوحي بوراثته الخالصة لفضل والده. وقد قصدوا بذلك إلى التخلص من التناقض الذي بدا لهم في فكرة أن يكون إسماعيل هو

---

(١) السابق، ٢١/ ١٢ ــ ١٣.

الذبيح مع انقطاع النبوة ــ حسب ما بلغهم إلى ذلك الزمان ــ في نسله، واستمرار النبوة في نسل إسحاق مع كونه لم يكن معنياً بفضل الذبح.

وتواتر النبوة في نسل إسحاق ــ وهو ما جعلناه أحد أسباب التحريف ــ حقيقة يقرها القرآن الكريم. فهو في قصص جميع الأنبياء الذين بعثوا بعد إبراهيم عليه السلام ــ إذا استثنينا عدداً قليلاً من الأنبياء غير الإسرائيليين ــ لا يذكر إلا سلسلة تبدأ بإسحاق عليه السلام، ثم يعقوب فالأسباط ويوسف، وكلهم من ولده. وهم يشكلون بالنسبة لنا نحن المسلمين الطبقة الأولى من الأنبياء الإسرائيليين، واليهود يدعونهم (بالآباء) أي أنهم الأصول ــ العرقية خصوصاً ــ التي نشأت عنها عصبية إسرائيل. ويورد القرآن الكريم أسماء وقصصاً لأنبياء آخرين يشكلون الطبقة الثانية، وهم بناة الشريعة اليهودية، ومنهم موسى وهارون عليهما السلام، وهم أيضاً من أبناء إسحاق. ويورد القرآن الكريم ما نسميه الطبقة الثالثة، وهم القيمون على الديانة الموسوية، ومنهم داود وسليمان وزكريا ويحي. والملاحظ أن أسماء هؤلاء الأنبياء الذين ذكرناهم وغيرهم كثيرة الورود في القرآن الكريم، مثل قوله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾[1][2]. ولكن القرآن الكريم على خلاف اليهود لم يقصد بإيراده لكل ذلك ما قصد إليه اليهود، بل أراد تحقيق أهداف دينية سامية سيأتي إيراد بعضها في هذه الدراسة.

والحقيقة أن اعتبارنا لتواتر النبوة في بني إسحاق سبباً لتفسير التحريف الواقع في سفر التكوين في موضوع الذبيح بالذات يبدو أكثر من راجح. والملاحظ أن تبني هذا الرأي يسهم في تكوين رأي عن زمان إجراء هذا التحريف، حيث نجعله متأخراً جداً في تاريخ النبوة الإسرائيلية. ومن الأدلة على ذلك اكتفاء الكتاب اليهود بتوجيه النصوص الأصلية بإضافات بسيطة تخرجها عن معانيها، وذلك مثل إضافة كلمة (إسحاق) دون التدخل في تغيير الصفات المتعلقة بإسماعيل في النص، والتي اكتفوا في جعلها تتعلق بإسحاق بتفسيرها بإبعاد إبراهيم لبكره إسماعيل عنه. وهو الأمر الذي حدث فيه تحريف واضح

---

(١) يؤكد هنا القرآن الكريم بأسلوبه الخاص ما قلناه حيث يحذف اسم إسماعيل للإبانة عن النبوة التي طريقها إسحاق عليه السلام.

(٢) الأنعام: ٨٤ ــ٨٧. أما بالنسبة لعيسى عليه السلام فإن اتصاله بإبراهيم عليه السلام تمَّ عبر والدته مريم العذراء عليها السلام.

أيضاً ـ كما سنرى في حينه ـ. ومعنى هذا أن العلماء اليهود قد وزعوا (التغيير) الذي أجروه على نصوص كثيرة. وهذه كلها أمور تدل على الزمن الحديث للتدوين، لأنها تدل على اشتهار قصة إسماعيل بين عامتهم، وبالتالي استحالة تحوير النصوص تحويراً كبيراً أو حذفها تماماً. وهذا أمر يدل عليه أيضاً سهولة كشف التحريف ـ كما أشرنا من قبل ـ بالنسبة لأي دارس متيقظ.

ويدل كل هذا الجهد الذي بذلوه على غفلتهم التامة فيما يخص أمر النبوة، إذ افترضوا فيها التواتر التام بين الأجيال. إضافة إلى أن فيه دلالة على أن كتاب العهد القديم كانوا لا يتورعون عن التجرؤ على تغيير كتاباتهم المقدسة، وهو أمر يدل على معرفتهم التامة بأنهم يكتبون شيئاً غير متواتر تمام التواتر، وأن العلماء قبلهم كانوا يقومون بمثل ما قاموا به هم أنفسهم كلما بدا لهم أن أمراً من الأمور لا يتوافق مع (الحقائق) التي تصوروها في أزمنتهم. وهذا الأمر لا يبدو جلياً في قصة إسماعيل فقط، بل في كل قصص العهد القديم حيث يرى الدارس بوضوح تأثير عنصري الزمان والمكان في قصصه. ويمكن تفسير هذا الإجراء الشائع في الكتاب المقدس بمحاولة (تقييد) (المطلق) التي نلاحظها عند جميع البشر ـ بما فيهم المسلمون في رواياتهم الضعيفة ـ حيث نلاحظ محاولة

(تجسيم) المعاني من أجل إحاطة أفضل بها.

ويؤدي بنا ما قررناه قبل قليل إلى وجوب التأكيد على أن جزءاً مهماً مما بين اليهود من كتابات يظل صحيحاً، ذلك أنهم لم يلجأوا إلى التحريف في النصوص أو التأويل المغرض لها إلا لتحقيق أغراض متعينة. ويؤكد هذا الرأي موافقة الكثير مما ورد في الأسفار اليهودية للقرآن الكريم، وسهولة اكتشاف التحريف بالنسبة للناقد اليقظ. وما ذهبنا إليه هنا هو بالذات ما قرره القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرناً ــ قبل إقرار البحوث الحديثة للتحريف بوسائلها الخاصة ــ فالقرآن ينص على أن اليهود:

١ ــ يلبسون الحق بالباطل، والتلبيس هو تغيير النص بوضع كلمة فيه، أي وضع كلمة باطلة في وسط نص الحق، وهو ما رأيناه واضحاً في إدخال كلمة (إسحاق) داخل نص الذبح.

٢ ــ يتأولون الكلمات والأصول تأويلاً يذهب بمعانيها، هذا إضافة إلى إخفائهم على الناس ما بأيديهم من الكتاب... ومن أمثلة الآيات الدالة على ذلك قوله عز وجل: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ

فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾[2].

ويضاف إلى ما ذكرناه في تفسير تحريف اليهود في موضوع الذبيح ما ذكره علماؤنا الذين حصروا الأمر ــ كما أشرنا من قبل ــ في حسد اليهود لأبناء عمومتهم العرب. وهذا أمر يجد تأكيده في ثبوت علم أحبار اليهود ببعث نبي كبير في أرض العرب، وأدلة ذلك موجودة في كتبهم، ومنها ما ورد في سفر أشعياء: «وحي من بلاد العرب. في الوعر من بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدانيين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء، وافوا الهارب بخبزه. فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لي السيد: في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار. وبقية عدد قسي أبناء قيدار تقل لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم»[3].

---

(١) المائدة: ٤١.

(٢) المائدة: ١٣. وانظر في تفصيل هذا الموضوع المناظرة الحديثة بين أحمد ديدات وسواجارت، هامش ص ٦٨ ومابعدها.

(٣) أشعياء: ١٣ ــ ١٧.

وبناء على هذا نستنتج أن سبب تحريفهم لكتاباتهم قد تم لإقصاء فكرة (بعث) هذا النبي، وهو ما نستطيع أن نوافق علماءنا القدامى على تسميته (بالحسد) لكنه حسد مركب تدخل في تكوينه غلبة الطابع العنصري على الديانة اليهودية في العصور المتأخرة، وعدم تقبلهم لفكرة (المساواة) بين البشر، وبالتالي رفضهم لفكرة وجود نبي من غير بني إسرائيل ليقود العالم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن تقبلهم لهذه النبوة ــ وغيرها ــ كان سيجعل اليهودية ديناً (نسبياً) أي قابلاً للنسخ وهو ما قاوموه بكل الوسائل.

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن التحريف قد تم في عصور متأخرة، إذ أنه لا يعقل أن يتواتر الأنبياء في بني إسرائيل دون أن يعرفوهم ذلك، إلا إذا لم يكلفوا أنفسهم ببيان ذلك أو أنهم لم يكونوا يعلمون بالتحريف أصلاً، وهما أمران بعيدان، فلم يبق إلا القول بأن ذلك تم في عصور متأخرة، ونرجح أنه تم بعد النفي البابلي حيث شهد تشتت الشعب اليهودي، وتدمير مؤسساته الدينية، مما أعطى الفرصة للكتبة الجدد لكي يحرروا ما تصوروه، وأثبتوا ما يناسب ميولهم (الانزوائية) عن العالم عبر فكرة تميز الشعب اليهودي عن الناس أجمعين، متأثرين في ذلك بما عملوه من اختصاص أمتهم بالنبوة، وأقاموا (هيكلاً) يحميهم من كل ذوبان في أي مجتمع ديني أو دنيوي قد يقوم

في المستقبل من الزمان. وهذا هو بالذات ما أدى إلى عنصرية وانغلاق الديانة اليهودية.

أما بالنسبة لتساؤلنا الثاني حول عدم إفصاح القرآن الكريم عن اسم (إسماعيل) عليه السلام نصاً. وتوزع متعلقات قصته التي تؤكد في مجموعها عنصر اختياره نبياً، وتخصيص أرض مكة لتكون موطنه وموطن النبي الخاتم من نسله، فإننا نحب أن ننبه قبل الإجابة على ذلك إلى أن أسلوب القرآن الكريم في عمومه، وخصوصاً عند إيراده لأخبار الأنبياء، يتميز عما عداه من النصوص سواء أكانت مقدسة أم بشرية بخاصية توزيع قصصهم على الكثير من السور. وهذا أمر يلاحظ في قصص جميع الأنبياء ما عدا قصة يوسف عليه السلام حيث وردت مجموعة في موضع واحدة في السورة التي سميت باسمه. وهذه خاصية بحثها جمع من علمائنا، حيث رأوا في إيراد الجزء بعد الجزء، وتغيير الأسلوب في كل منها منهجاً لتحقيق مقاصد القرآن الكريم، ومنها تقرير عقيدة من عقائد الإسلام، أو تصحيح عقيدة لليهود والنصارى. أو تنقية صورة النبوة مما شابها عندهم من الأدران، أو إعطاء مثال سامقٍ في التوحيد، أو حسن الاعتماد، أو رفعة الخلق، أو رجاء المؤمنين في الله

حتى يستنوا بسنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[1].

ومع قناعتنا التامة بما أورده علماؤنا في أسباب تميز أسلوب القرآن الكريم، فإننا نحب أن نضيف سببين نراهما في غاية الأهمية لما نحن بصدده:

**١ ــ الأول:**

يكمن أن (النبي) هو (أنموذج) لمجموع البشرية، ولذلك فإن سور القرآن الكريم لا تخلو من النماذج أبداً، حيث يقابلها القارىء له في كل حين، ويرى صوراً من (العقيدة الصحيحة) و(السلوك القويم) في كل سورة من سوره.

**٢ ــ والثاني:**

وهو أكثر اتصالاً بموضوع الدراسة الدينية المقارنة، ويكمن في إبراز (تميز) القرآن الكريم عن الكتابات المقدسة السابقة عليه جميعاً، وبدون استثناء، أي الكتابات التي اصطلحنا على تسميتها بكتب الديانات التوحيدية أو كتب الديانات الوضعية. ففي كل هذه الكتابات ــ خصوصاً في الأسفار الخمسة.

والأناجيل الأربعة وأعمال الرسل من العهد الجديد

---

(١) انظر بعض أغراض القصة القرآنية في: التصوير الفني في القرآن الكريم للأستاذ سيد قطب رحمه الله.

ـ نلاحظ التركيز الشديد على الجانب التأريخي العنصري أو الذاتي للشخصيات وللأمم وللحوادث متميزة في مجموعها عن العقيدة والشريعة. مما يعطي انطباعاً شديداً بانفصال الشخصية عن الهدف الديني.

أما بالنسبة للقرآن الكريم، فإن الغرض التأريخي بالمعنى المعروف لهذا العلم، كما أن الغرض التأريخي الخاص بقصصه، والذي يتعلق بحياة الأنبياء والأحداث العقيدية فيها ـ وهما أمران أساسيان عند المقارنة ـ يبدوان عنصرين هامشيين ـ نؤكد هنا أن هذا من حيث الظاهر فقط أمَّا في حقيقة الأمر فإن ضبط القرآن هذين الأمرين كامل ـ وهو ما يفسح المجال واسعاً أمام بروز الهدف (الإيماني) في القصص الذي يركز على جانب تخليص العقيدة من الشوائب، مع ضبطها ضبطاً يناسب المكانة اللائقة التي يحتلها الأنبياء ـ جميعاً ـ في تاريخ التطور الروحي للبشرية. ومن هنا فإن توزع القصص يعبر عن (تداخل) سيرهم، و (اتحاد) أهدافهم، كما يبرز (المساواة) في أقدارهم باعتبارهم (نماذج). وهي عناصر غائبة في الكتابات المقدسة غير القرآن الكريم.

والجانب الإعجازي في هذه الخاصية القرآنية يبدو جلياً لكل من تأمل، فإن توزيع القصص بهذا الشكل، وبدء القصة الواحدة من أطراف متعددة، وبأساليب مختلفة، كلها ترفد

بعضها البعض، بحيث تشكل (صورة) و (صوراً) عن دعوة نبي واحد بحيث يؤدي (التعدد) إلى توليد (انطباع واحد)، وتتفرق (الوحدة) في (أجزائها). كل هذا يؤكد أن صاحبه ليس (بشراً) كما هو الحال في الكتابات المقدسة الأخرى. وهذا أمر يعرفه الناس اضطراراً، حيث أننا عاجزون ــ معاشر البشر ــ عن تصور قصة ليس لها بداية وعقدة ــ أو عقد ــ ونهاية مرتبة ترتيباً (مريحاً) بالنسبة لقدراتنا (العقلية) و (التخيلية) أي مرتبة ترتيباً (ممنطقاً). ولهذا فإن عدم النص على اسم (الذبيح) يعود إلى الأسلوب القرآني الخاص، الذي ذكرنا منه طرفاً قبل قليل إذ اختار طريقة في التعبير أسمى ما تكون بلاغة، حيث تتشكل الصورة كاملة عن (حادث الذبح) و (الذبيح) جزءاً بعد جزء، وذلك مع اكتمال (قصة) إبراهيم عليه السلام، وقيمة دعوته بالنسبة (للتوحيد)، وتكتمل أيضاً جزء بعد جزء صور اختيار (إسماعيل) للنبوة والرسالة والتفضيل. ومن هنا يفهم النص الخاص بالذبح من سورة الصافات في ضوء القصة الكلية فيرتبط الجزء بالكل ارتباطاً لا ينفصم. وهذا لا يعني أن نص الذبح لا يفهم منه أن الذبيح هو (إسماعيل)، فقد بحثنا القضية، وأثبتنا ذلك بما لا يدع مجالاً للشك. والله أعلم.